

العلوم الشرعية بين الجمود والعصرنة

د.أ.د. محمد خالد اسطنبولي

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

جامعة أدرار

مقدمة

إن الدارس لبرامج العلوم الإسلامية يلاحظ للموهلة الأولى أننا ندرس تاريخ التشريع أو تشريع منهجية القرون الماضية فمازلنا ندرس الحوالة بعقلية القرن الثالث والرابع هجري، وكذا الصرف، والهبة، وموضوعات خطيرة، ونوازل قد حدثت، والأسلوب واحد، غاب التجديد في جامعاتنا غابت المنهجية غاب الإبداع غاب التميز، غاب علم طرق التدريس وهذه المداخلة هي ورقة ضمن أوراق تحاول أن تركز على بعض جوانب المشكلة.

فأول مشكلة هي أن الأزمة فكرية عامة تولدت عنها فروع منها التفوق على العلوم الشرعية بعيدة عن علوم العصر التي لا يفهم الواقع إلا بها.

الدراسات المنهجية عامة غائبة وورقي تكلمت عن مسألة الجودة وتريد جودة التنمية البشرية أي نخرج أساتذة أكفاء ليربوا أجيال رائدة في حياتها.

انفتاح العلوم الشرعية على علوم العصر بين الضرورة والتقوقع:

لقد جاء الإسلام ليقرر مبدأ عظيماً ومهما وعميقاً هو مبدأ الحرية التي ضيعت، وأريد لها أن تضيع بفعل فاعل مستتر تقديره هو؟ هذا مبدأ عام، وواقع مرير، إن تكبيل العقل المسلم، والغلق عليه، والحجر هو أحد الكبر، أما إذا صدر هذا عن علماء ومثقفين فإنه سيكون كارثة على البيئة الإسلامية والإنسانية، ولهذا يحثنا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَجْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفَرْدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكُوا﴾ سبأ 46، وإذا كبل هذا العقل وسلب حريته لقرون، ولدهر من الزمن فقد آن الأوان لتحريره من هذه الأغلال التي فرضت عليه، إن توهم التعارض بين الدين والعقل والعلم، وحصر المعرفة في الوحي ليس وجده ملكاً لله، بل العقل والكون أيضاً ملكاً لله، إن الحضارة الحديثة أصبحت حضارة العلم، لا حضارة أمة بعينها وأن إغفالها بعد جريمة ونكران وانحراف، إن الانفتاح على العلوم الإنسانية، علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاتصال وعلم السياسة وعلم المناهج بل وعلوم التكنولوجيا بات ضرورياً واجب على الأمة التعامل معها، وليس من باب التطوع والنافلة، إن هذه العلوم والتجارب أضحت علوماً إنسانية عالمية لا جنسية لها⁽¹⁾، ومن هنا فإشكالية هذا المبحث الخطير تكون كالآتي: هل علوم العصر، وفهم الحضارة الحديثة ومشكلاتها أضحت من الوجوب والضرورة في فهم الكتاب والسنة وفي تطبيقها؟ أم هي من نافلة العمل؟

الرفض المطلق للحضارة بين الوهم والحقيقة:

في الحقيقة وفي الواقع ليس هناك رفض مطلق للحضارة الغربية والأجنبية، فلقد أخذنا من تقنياتهم من الطب والهندسة وعلم الزراعة وعلم الاقتصاد، بل حتى منتجاتهم الزراعية وغيرها، قمحنا، أكلنا ملبسنا... من عندهم، ثم رفضنا أموراً أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، رفضنا علم النفس جملة وتفصيلاً، وفي أذهاننا أن علم النفس هو فرايد، وأن فرايد يساوي الإباحة الجنسية، فأغلقنا الباب علينا، بل ورفضنا علم الاجتماع لأنه هو دوركايم، ورفضنا التنمية البشرية عموماً لأنها من الغرب.

و هنا ينبه أبو الشقة بان الرفض المطلق للحضارة الحديثة يعني عدم التعمق في دراسة تلك الحضارة وعدم فهمها وإذا نحن لم نفهم الحضارة الغربية جيداً، وهي السائدة في عالمنا المعاصر، فلن نعي عصرنا جيداً، هذه واحدة.

و ما دمنا لم نع عصرنا فلن نفهم الدين الفهم المطلق المنبثق عن عقل هذا العصر، ولن نجتهد الاجتهاد المطابق لظروف العصر هذه ثانية.

بل سنعتزل ونتفوق لنعيش سعداء حاملين أو تعساء بعقلية أجدادنا الأقربين هذه الثالثة.

إننا حين نأخذ عن الغرب ونتجاوز مشاعر الرفض، لن نقف عند العلوم الطبيعية وما نتج عنها من صناعة وتكنولوجيا، بل نأخذ وفي يدينا ميزان الحق، كل جهد عظيم في مجال العلوم الإنسانية، ولنحذر التطور الساذج الذي لا يرى الحضارة الإلهية، انظر كتابات وتحليلات أمثال أبي حامد الغزالي في القرن الخامس

المجري، وابن تيمية، ومحمد رشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب من أواسط القرن الرابع عشر الهجري.

و إذا جاز لإبائنا الرفض يوم كان الغزو ضاربا وشاملا (عسكريا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا) لأنه لم يكن هناك سبيل للدراسة والتحميص والخيار، فأما رفض يساعد على الصمود، وإما قبول يساعد على الاستسلام.

إذا جاز لآبائنا أن يقفوا موقف الدفاع ذلك، يوم كان الغزو وهم محصورون في حصونهم الثقافية المهددة، فإن الدفاع لا يجوز لنا اليوم، ونحن نستطيع أن نقف موقف الدارس الناقد المستفيد من التراث من ناحية كما نستطيع أن نقدم الإسلام كقيم رفيعة في وسط حصون الغزاة السابقين من ناحية أخرى.

حتى التعبير بالفكر المستورد لا أرى فيه ما يكفي لإدانة كل فكر يأتي من الخارج، والصحيح أن نصف الفكر بمضمونه الصالح والفاسد، فكم من فكر مستورد صالح، وكم من فكر محلي فاسد.

الم يكن الفكر الإسلامي فكرا مستوردا بالنسبة لشعوب سوريا ومصر والمغرب... في القرن الأول الهجري؟ وأليس الفكر الإسلامي اليوم فكرا مستوردا بالنسبة لبعض شعوب آسيا وإفريقيا بل وشعوب أوروبا وأمريكا...

إن الحضارة الحديثة خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين أضحت حضارة العالم، لا حضارة أمة بعينها وأن أمم العالم بأسرها تسهم في إعداد هذه الحضارة وتطويرها (2).

إن سنة التعارف بين بني البشر واجبة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

الحجرات: ١٣ ، إن التعارف ليس هو التزاور فحسب أو الاتصال الأجوف، بل هو التقاء للحضارات في قواسم مشتركة من غير ذوبان، يقول مالك بن نبي: "والنهضة الإسلامية تبدو وكأنها تريد أن تتخلص من فوضاها، وهي تتطلع منذ عهد قريب النظام والتنظيم... إن مجتمع ما بعد الموحدين يسعى نحو مرحلة من الحضارة تتسم بتركيب أصيل لعبقريته الإسلامية الخالصة مع العبقرية الحديثة.

لكن هذا يقتضي معرفة متعمقة للإنسان وإمكاناته ونقائصه وتقصيا واعيا للقيم الاجتماعية في الإسلام، فعلم النفس، وعلم الاجتماع ضروريان، إذن للكشف عن القيم الجديد في النهضة الإسلامية ... وعليه فلنكن نعرف الإنسان، ينبغي علينا أن نعرف أنفسنا⁽³⁾...

و تحت عنوان نحن جزء من كل، يقول مالك بن نبي كذلك بان العالم الإسلامي ليس طائفة من الخلق منعزلة عما سواها، فهي نادرة على أن تكمل تطورها داخل وعاء مغلق، بل انه يمثل في رواية الإنسانية دورين ويقوم بهما في وقت واحد، دور ممثلا ودوره شاهدا، هذا الاشتراك المزدوج يفرض عليه واجب التوفيق بين حياته المادية والروحية، وبين مصادر الإنسانية، فهو لكي يقوم بدور مؤثر فعال في حركة التطور العالمي ينبغي أن يعرف العالم، وأن يعرف نفسه وان يعرف الآخرين بنفسه، فيشرع في تقويم قيمه الذاتية، إلى جانب تقويمه لما تملكه البشرية من القيم⁽⁴⁾، في هذه الجزئية بيت التخلف عند بعض المسلمين في هذا التقوقع واعني بذلك كليتنا في الغالب تخرج إطارات من هذا النوع بالذات إذا كانت المناهج والبرامج الدراسية أعدت لهذا وسأخص مبحثنا للبرامج والمحتوى الدراسي.

جامعتنا وعلم المنهجية

هذه الجزئية تحاول أن تركز وأن تدرس إشكالية خطيرة وعميقة لموضوع مهم ومعقد للغاية هو موضوع المنهجية ويصرح د. فريد الأنصاري أن المنهج هو جوهر مشكلة الأمة فلو استقامت عليه، لاستقام لها كل الارتجال وانه لا يستقيم أمر بغير ترتيب، ولا يقوم بناء بغير نسق وتركيب.

و هكذا صار لدي يقين في أن التعلم الحق، ليس هو جميع المعارف واحتطائها بقدر ما هو بحث في مناهجها، لاقتناص إصراره، بادراك كفاءات انبائها، وطرائق تركيبها، إذ العالم ليس هو الذي يحمل في رأسه خزائن ومكتبات، ولكنه الذي يعرف كيف يوظف ما في رأسه، وما في الخزائن والمكتبات، من اجل إضافة بعض الإضافات⁽⁵⁾

و الملاحظ من حيث العموم في جامعتنا والأخص المتخصصة في العلوم الإسلامية غياب الدراسات المنهجية والمناهج وإن وجد فعلى استحياء رغم انه هو العمود الفقري لكل العلوم.

إذا كنا نتحدث عن الوجود في التعليم ومناهج التدريس عندنا متخلفة وعافها الزمن أما البرامج الدراسية فهي كذلك، فماذا ننتظر من النتيجة؟

ويقول الأنصاري في هذا الاتجاه: ولذلك كله صرت انظر بعين النقد لبرامج شعبة الدراسات الإسلامية بالمغرب، ومقرراتها لما تعانيه من قصور منهجي شديد، سواء فيما يتعلق بالمادة المنهجية، أو فيما يتعلق بتدريس سائر المواد على العموم⁽⁶⁾...

والحقيقة المرة أن الأزمة الحقيقية في الأمة هي أزمة تفكير، فمنهاج الفكر قد غاب في الأمة.

وهذا أبو شقة يقول إذا كبل هذا العقل سلب حريته فلا بد من تحريره وإطلاقه من كل ما يعرقل قيامه بدوره أو يعوق حركته، وماذا يعني تحرير العقل أكثر من إنقاذه من القيود التي تفرض عليه ويحجرون عليه ويدلون به:-

- تضيق نطاق عمله وحصره في حفظ المتن.
- إهمال تغذيته بما ينفع، فلا نظر ولا بحث علمي رشيد.
- تقديس السابقين "ومجرد تقديسك عقل غيرك يعني حتما إلغاء عقلك أنت".
- أو بالاحتراز المسرف من الوقوع في خطأ نتيجة الاجتهاد.
- الغفلة عن القواعد الأصولية والقواعد الفقهية.
- الاعتماد على فقه التلقين بعيدا عن التدبر والتفكير.
- تعطيل عمل العقل خوفا على عمل الوحي وكأنهما خصمان لدودان... الخ⁽⁷⁾

ونفس الطرح يقدمه ا.د جابر العلواني بان الفكر ثمرة لسائر مصادر المعرفة والثقافة والخبرة والتجربة والقدرة والمفاهيم والاتجاهات الاجتماعية يسهم في اتجاه الوحي النازل من السماء بالنسبة للمسلم... فالفكر كالثمرة لشجرة لها كل هذه الجذور والمكونات، فإذا سلمت منطلقات الفكر ومصادره، واستقامت سبله وصلحت مناهجه، وحسنت غاياته ومقاصده، صلح وصلحت حال حامله، وإذا حدث خلل أو فساد في شيء من ذلك فسد الفكر واضطربت الحياة كلها، وتغير كل شيء فيها، صار الإنسان قاصر النظر، محدود الأفق، يتجاوز الكليات إلى الشطائر والجزئيات يتخطى المقاصد والغايات إلى الفروع والشكليات، يهمل ربط الأسباب بالمسببات أو ربط المسببات بغير أسبابها، فتدخل إلى الإنسان الخرافة ويقبل على الدجل، وتنعدم عنده الأولويات، وحين يصبح المجتمع بهذه الحال تنهار التوازنات الاجتماعية، وتنفث أبواب الصراع بين العناصر المكونة للجماعة والأمة،

وينعدم الأمن، وتنهار الثقة، ويشيع الفساد، وبذلك تفقد الأمة كل قدرة على إدراك واقعها أو التفكير بمستقبلها، وتصبح جهودها ونشاطاتها منحصرة في الصراع والشكليات، ويشبه حالها حال رجال المطافئ الذين يعيشون فقط لحل الأزمات⁽⁸⁾.

الجودة في التعليم

إن مسألة الجودة في التعليم أمر مهم ومطلوب سال فيها حبر كثير وهي مطلب العقلاء وعقدت لها مؤتمرات وطنية ودولية منها ملتقى دولي بعنوان إشكالية التكوين والتعليم في إفريقيا والعالم العربي سنة 2001 عقد بجامعة سطيف - الجزائر - وملتقى آخر سنة 2008 بطنجة-المغرب- بعنوان دور الجامعات المغاربية في بناء المغرب العربي. ثم مؤتمر دولي لضمان جودة التعليم العالي عقد بجامعة الزرقاء الأردن سنة 2011

و هنا دراسة تطبيقية بعنوان الجودة في التعليم نشرت في عمان الطبعة الأولى سنة 2008 م -1429 هـ ، وهي دراسة جادة.

وكل هذه الدراسات وغيرها مضمونها هو جودة التعليم لتخريج دفعات متميزة وعندها مؤهلات ذات جودة عالية ويركزون اغلبهم في هذه الدراسات على الجانب التقني والاقتصادي الذي يخدم البشرية.

وأنا هنا من هذا المنبر أحاول أن أركز على كليات الشريعة بخاصة لأهميتها من جهة ولتحسين صورتها في هذه المجتمعات التي تنظر إليها على أساس أنها جامعات غير منتجة.

إدارة الجودة في كليات الشريعة

إن مصطلح جودة في نظري لا يحتاج إلى تعريف اصطلاحى بل يحتاج إلى إعطائه مفهوماً.

ولعل الجودة المراد بها الإتقان والإحسان، بل وكل شيء حسن أو أحسن فهو في إطار الجودة، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ ملك 2.

قال: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ يوسف 55.

﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ النمل 88

والرسول ﷺ يربط بين الإتقان والإحسان فيقول "إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة" ويقول الرسول ﷺ: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" ويؤكد سعيد حوى أن الإحسان ذو جانبين عمل الحسن أو الأحسن ثم الشعور أثناء العمل بأن الله يرانا أو كأننا نراه، وهذا هو تعريف النبي ﷺ للإحسان، "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فالإحسان مراقبة دائمة لله، وإحساس بقيمة العمل، وعلى هذا تدرج كل عبادة شرعية، أو سلوكية أو عائلية تحت مصطلح الإحسان الذي يعني انتقاء الأحسن في كل شيء.

ويؤكد د. مسلم بن سالم الوهبي بأن هناك علاقة متداخلة بين الإتقان والإحسان، غير أن الإتقان عمل يتعلق بالمهارات التي يكتسبها الإنسان في حين أن الإحسان قوة داخلية تتربى في كيان المسلم، وتعلق في ضميره وترجم إلى مهارة يدوية أيضاً، فالإحسان اشمل واعم دلالة من الإتقان...

فالإحساس الداخلي الذي تزرعه قيم الإسلام هو الحارس الأمين والرادع القوي الذي يحمي الأخلاق والقانون، ويصون رسالة المؤسسة التعليمية من التقهقر، ويحفز العامل إلى إتقان العمل، والسعي الحثيث بدافع من ضميره إلى تحسين وتطوير مهاراته، والتفاعل بالاجبابة في البرامج المخصصة لإنماء مهنته والصدق في تنفيذ توصيات الجودة⁽⁹⁾

كليات الشريعة وإشكالية المناهج

قد يبدو أن العنوان فيه استغراب وتعجب، أولاً لا أتكلم على كليات الشريعة من حيث الهياكل البنائية هي مدرجات وحجر الدرس، بل ولا أتكلم على الهيكل الإداري إنما أركز على مسألة مهمة تمثل العمود الفقري لكليات الشريعة هي مسألة المنهاج.

واقصد بالمنهاج هنا الذي تتكون أركانه وعناصر من: الأهداف والمحتوى، وطريقة التدريس، وطريقة التقويم.

ويبين الدكتور عبد الرحمن صالح عبد الله بان المنهاج يتكون من أربعة عناصر: الأهداف والمحتوى وطريقة التدريس، وطريقة التقويم، وترتبط هذه العناصر فيها بينها بعلاقات تبادلية، أي أن كل عنصر من هذه العناصر يؤثر في العناصر الأخرى ويتأثر بها⁽¹⁰⁾.

أ- الأهداف:

عندما أتكلم عن الأهداف فانا بداية أتكلم عن الإستراتيجية والتخطيط لوضع هذه الأهداف.

أولاً: ماهي أهداف كليات الشريعة عموماً؟

تهدف كليات الشريعة بالدرجة الأولى تخريج أساتذة متخصصين في كل ميادين الشريعة، عقيدة، فقه، أصول، سلوك، حديث، قرآن، تفسير..... وفي نفس الوقت تخريج باحثين أكاديميين متخصصين وفي نفس الوقت اخرج متخصص في التدريس الابتدائي والمتوسط والثانوي والجامعي ، كما اخرج إمام المسجد ومرشدة المسجد وهكذا وكل تخصص له أهدافه وهذه الأهداف تتطلب محتوى خاصا.

وهذا كله يحتاج إلى تخطيط محكم من ذوي الاختصاص، وهناك غدوات تدريبية تعنى بهذا الشأن وخلاصة هذا الجزئية إن الأهداف إذا لم تكن واضحة لدى الطالب والأستاذ ولواضعي المناهج الدراسية فإن الأهداف ستكون ضبابية ولن تتحقق.

طريقة التدريس (11)

ولعل طريقة التدريس أراها هي أهم عنصر في هذه المنظومة لان الطريقة هي من اختصاص الأستاذ وإذا ما وفق الأستاذ في طريقة تدريسه، حتى ولو كان الهدف فيه بعض الغش فان الأستاذ يستطيع أن يتجاوزه وينجح عملية التدريس. والحقيقة المرة في جامعاتنا أن طرق التدريس وفن ومهارة التدريس تكاد تكون عندنا شبه منعدمة، لماذا؟ لأنه أصلا أستاذ الشريعة يلقي مواد شرعية بحتة بعيدة كل البعد عن منهجية التدريس الصحيحة بل طرق التدريس وعلم النفس التربوي ومهارات التدريس وكل هذه المواد التربوية منعدمة في كليات الشريعة فكيف إذن يخرج أستاذ في الشريعة لم يتعلم حرفا واحدا في التربية البيداغوجية لطرق التدريس، ولهذا نخلص إلى ضرورة تعميم تدريس مواد بيداغوجية وتربوية في طرق التدريس ومهاراته وفنياته.

المحتوى الدراسي:

إن المحتوى الدراسي هي دروس في تخصص معين وليكن على سبيل المثال الفقه مثلاً: فالطالب يدرس العبادات ثم جزء من المعاملات عن طريق اختيار كتاب او طبع مذكرة ثم يمتحن فيه.

والمفروض أن الطالب في هذه المرحلة يشارك أستاذه في البحث بل ويكلف الطلبة ببحوث وعروض ، حتى يتعلموا المناقشة والبرهنة...

ونعلمهم منهجية البحث والقراءة والطالب أرى أن يركز له على الفقه المقارن... والابتعاد قدر المستطاع عن المتون.

بالنسبة لمادة أصول الفقه فإنها تدرس بطريقة جامدة مع أسئلة ميتة ولهذا رغم حيوية هذه المادة وهو تمثل منهجية دراسة العلوم الإسلامية إلا أنها مع الطلبة هي أصعب مادة وأجملها .

والخلاصة أن البرامج الدراسية وضعها ليس أمراً سهلاً بل هو يخضع للأهداف المسطرة مسبقاً، وإعدادها يحتاج إلى خبرة كبيرة.

الهوامش

1- بنظر مذكرة نقد العقل المسلم الأزمة والمخرج. عبد الحليم ابو شقة. تقديم محمد عمارة.

2- المرجع السابق ص 18...

3- ينظر وجهة العالم الإسلامي. مالك بن نبي دار الفكر دمشق. 2010. ص 153،

154

4- مرجع سابق ص 16

- 5- ينظر مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهلين والإسلاميين .قضايا ونماذج . ا.د. الشاهد البوشيخي. دار القلم الدار البيضاء المغرب ط1 1413هـ ، 1993م ص 21.22. وأبجديات البحث في العلوم الشرعية ا.د. فريد الأنصاري ط1 1413هـ ، 2002، دار الكلمة مصر ص 5-6.
- 6- بنظر الأبجديات ص 6
- 7- ينظر نقد العقل المسلم أبو شقة ص 5. 6. 10...
- 8- ينظر بحث إسلامية المنهجية والعلوم السلوكية . ا.د. طه جابر العلواني ص 22، 23. كتاب المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية. المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي 1994م، 1415هـ
- 9- بحث ابرز الدوافع الذاتية لإنتقان تنفيذ معايير الجودة د.مسلم بن سالم الوهيبي. سلطة عمان ص 387، 388.
- بحث مقدم للمؤتمر العربي الدولي الأول لضمان جودة التعليم 2011 الأردن. سعيد حوى جند الله ثقافة ص 30
- 10- بحث- طبيعة .طريق التدريس في التربية الإسلامية د.عبد الرحمان .صالح عبد الله ص 8.
- المرجع في تدريس علوم التربية
- تحرير عبد الرحمان صالح عبد الله دار البشير - عمان 1997م- 1418 هـ .
- 11- لمرجع في تدريس علوم الشريعة القسم الثاني .تحرير عبد الرحمان صالح عبد الله جامعة قابوس دار البشير الأردن 1997م. 1418 هـ